الفصل الدراسي الثّاني

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

خَيْرُ النّاسِ

المُؤَلِّفونَ

ما أَجْمَلَ أَنْ تُدْخِلَ السُّرورَ إلى قُلوبِ الآخَرينَ بِعَمَلِ الخَيْرِ! فَتُكْسِبَ وَجْهَكَ نوراً، وَقَلْبَكَ بَياضاً، وَرَصيدَكَ حَسَناتٍ، وَتَنالَ بِذلِكَ رِضا اللهِ تَعالى، وَتُصْبِحَ مِنْ خَيْرِ النّاسِ؛ لِقَوْلِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحَديثِ: "وَخَيْرُ النّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنّاسِ". (السِّلْسِلَةُ الصَّحيحَةُ لِلْأَلْبانِيِّ – إِسْنادُهُ حَسَنٌ). وَقَدْ سُئِلَ الإِمامُ مالِكٌ: "أَيُّ الأَعْمالِ تُحِبُّ؟ فَقالَ: "إِدْخالَ السُّرورِ عَلى المُسْلِمينَ، وَأَنا نَذَرْتُ نَفْسي أُفَرِّجُ كُرُباتِ المُسْلِمينَ".

وَيُرْوى أَنَّ ابْنَ عَبّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كانَ مُعْتَكِفاً في المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَجاءَهُ رَجُلٌ يَسْتَعينُ بِهِ عَلى حاجَةٍ لَهُ، فَخَرَجَ مَعَهُ، فَقالوا لَهُ: كَيْفَ تَخْرُجُ مِنَ المُعْتَكَفِ؟ فَقالَ: لَأَنْ أَخْرُجَ في حاجَةِ أَخي خَيْرٌ لي مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ في مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَهْراً.

وَكانَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَتَعاهَدُ بَعْضَ الأَرامِلِ، فَيَسْقي لَهُنَّ الماءَ في اللَّيْلِ، وَرَآهُ طَلْحَةُ في اللَّيْلِ يَدْخُلُ بَيْتَ امْرَأَةٍ، فَدَخَلَ إِلَيْها طَلْحَةُ نَهاراً، فَإِذا هِيَ عَجوزٌ عَمْياءُ مُقْعَدَةٌ، فَسَأَلَها: ما يَصْنَعُ هذا الرَّجُلُ عِنْدَكِ؟ قالَتْ: هذا مُنْذُ كَذا وَكَذا وَهُوَ يَتَعاهَدُني، يَأْتيني بِما يُصْلِحُني، وَيُخْرِجُ عَنّي الأَذى. فَقالَ طَلْحَةُ: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يا طَلْحَةُ، عَثَراتِ عُمَرَ تَتَّبِعُ؟!

إِنَّ فاعِلَ الخَيْرِ كَالْغَيْثِ المُنْهَمِرِ مِنَ السَّماءِ، يُرْوى بِهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَلا يَطْلُبُ جَزاءً مِنْ أَحَدٍ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُسَهِّلَ اللهُ قَضاءَ حَوائِجِكَ، فَأَعِنِ النّاسَ عَلى قَضاءِ حَوائِجِهِمْ، فَالجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَهذا يُعَدُّ مِنْ بابِ المُسارَعَةِ إِلى فِعْلِ الخَيْرِ، وَالمُسابَقَةِ فيهِ، كَما قالَ اللهُ تَعالى: "فاسْتَبِقوا الخَيْراتِ". (البقرة: ١٤٨).

وَفاعِلُ الخَيْرِ كَالزَّهْرَةِ الَّتي تَفوحُ عِطْراً دونَ أَنْ تَنْتَظِرَ أَجْراً مِنْ أَحَدٍ، أَوْ كَالبُلْبُلِ المُتَرَنِّمِ الَّذي يُطْرِبُ مَنْ حَوْلَهُ دونَ جَزاءٍ مُنْتَظَرٍ! أَفَلا نَكونُ مِثْلَهُما؟

جُدْ بِعَمَلِ الخَيْرِ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تَتَصَدَّقُ بِها عَلى الآخَرينَ، وَلَيْسَ أَفْضَلَ، في هذا البابِ، مِنَ الدُّعاءِ. قالَ رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "ما مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعو لِأَخيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، إِلّا قالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ".

(رَواهُ مُسْلِمٌ)

الدَّرْسُ الثّاني

مَجْزَرَةُ الدَّوايمَةِ

تَقَعُ قَرْيَةُ الدَّوايمَةِ غَرْبِيَّ مَدينَةِ الخَليلِ، وَسُمِّيَتْ بِهذا الاسْمِ تَخْليداً لِذِكْرى رَجُلٍ صالِحٍ سَكَنَها، وَاسْمُهُ (عَليُّ بْنُ عَبْدِ الدّايمِ بْنِ أَحْمَدَ الغَمارِيِّ). وَيَرْتَبِطُ اسْمُها بِمَجْزَرَةِ الدَّوايمَةِ، وَهِيَ إِحْدى المَجازِرِ الوَحْشِيَّةِ الَّتي ارْتَكَبَتْها العِصاباتُ الصِّهْيونِيَّةُ مُنْتَصَفَ لَيْلِ الثّامِنِ مِنْ تِشْرينِ الأَوَّلِ عامَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَثَمانِيَةٍ وَأَرْبَعينَ ميلادِيّ، حَيْثُ قامَتْ العِصاباتُ الصِّهْيونِيَّةُ بِارْتِكابِ هذِهِ المَجْزَرَةِ، وَقَدْ ظَلَّتْ تَفاصيلُها طَيَّ الكِتْمانِ، إِلى أَنْ كَشَفَتْ عَنْها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُراسِلَةُ صَحيفَةٍ صِهْيونِيَّةٍ خِلالَ شَهْرِ أَيْلولَ مِنْ عامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَثَمانينَ ميلادِي.

وَحاصَرَتِ العِصاباتُ الصِّهْيونِيَّةُ القَرْيَةَ مِنْ ثَلاثِ جِهاتٍ، وَتَرَكَتِ الجِهَةَ الشَّرْقِيَّةَ مَفْتوحَةً، ثُمَّ بَدَأَتْ إِطْلاقَ النّارِ، وَتَفْتيشَ المَنازِلِ مَنْزِلاً مَنْزِلاً، فَقُتِلَ كُلُّ مَنْ وُجِدَ صَغيراً كانَ أَمْ كَبيراً، شَيْخاً أَمِ امْرَأَةً، وَأَطْلَقَتِ المَدافِعُ الصِّهْيونِيَّةُ حِمَمَ حِقْدِها عَلى خَمْسَةٍ وَسَبْعينَ مُسِنّاً كانوا يَسْتَعِدّونَ لِأَداءِ الصَّلاةِ في مَسْجِدِ القَرْيَةِ، فَقُتِلوا جَميعاً.

وَمِنْ فَظائِعِ هذِهِ المَجْزَرَةِ، أَنَّ العِصاباتِ الصِّهْيونِيَّةَ أَعْدَمَتْ ما يَزيدُ عَنْ خَمْسٍ وَثَلاثينَ عائِلَةً عِنْدَ مَدْخَلِ المَغارَةِ المُسَمّاةِ (طَوْرَ الزّاغِ)، كانَتْ قَدْ لَجَأَتْ إِلَيْها، وَقامَتْ بِتَجْميعِ الجُثَثِ، وَإِضْرامِ النّارِ فيها حَتّى تَفَحَّمَتْ، وَإِجْبارِ الأَسْرى عَلى حَمْلِها، وَإِلْقائِها في آبارٍ مَهْجورَةٍ، وَقامَ أَفْرادُ هذِهِ العِصاباتِ بِتَحْطيمِ رُؤوسِ الأَطْفالِ أَمامَ أُمَّهاتِهِمْ بِالهَراواتِ، وَمِنْ ثَمَّ إِعْدامِ الأُمَّهاتِ، وَالاعْتِداءِ عَلى النِّساءِ أَمامَ ذَويهِنَّ، ثُمَّ دُمِّرَتِ القَرْيَةُ تَدْميراً كامِلاً.

وَاسْتِناداً إِلى الإِحْصاءاتِ الَّتي أَجْمَعَ عَلَيْها العَرَبُ، وَالأُمَمُ المُتَّحِدَةُ، وَجَيْشُ الاحْتِلالِ الصِّهْيونيُّ، فَقَدْ بَلَغَ عَدَدُ شُهَداءِ مَجْزَرَةِ الدَّوايمَةِ أَلْفَ مُواطِنٍ، وَقَدْ أَدْلى بَعْضُ المُؤَرِّخينَ، وَبَعْضُ القادَةِ الصَّهاينَةِ بِشَهاداتٍ، فَقالَ (هارون كوهين): "ذُبِحَ سُكّانُ قُرًى بِأَكْمَلِها، وَقُطِعَتْ أَصابِعُ النِّساءِ، وَآذانُهُنَّ؛ لانْتِزاعِ القِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ مِنْها"، وَقالَ الحاخامُ الصِّهْيونيُّ (يوئيلُ بْنُ نون): "إِنَّ الظُّلْمَ التّاريخِيَّ الَّذي أَلْحَقْناهُ بِالفِلَسْطينِيّينَ أَكْثَرُ مِمّا أَلْحَقَهُ العالَمُ بِنا (المَوْسوعَةُ الحُرَّةُ وَيْكيبيديا، بِتَصَرُّفٍ).

الدَّرْسُ الثّالِثُ

آدابُ الطَّريقِ

تَسْتَقيمُ المُجْتَمَعاتُ عِنْدَما يَتَمَسَّكُ أَفْرادُها بِالآدابِ العامَّةِ الَّتي تَضْمَنُ حُسْنَ تَعامُلِ النّاسِ مَعَ بَعْضِهِمْ، وَلَقَدْ عَلَّمَنا الإِسْلامُ السُّلوكاتِ، وَالآدابَ الَّتي تَقودُ أَبْناءَ المُجْتَمَعاتِ إِلى التَّقَدُّمِ، وَالرُّقيِّ، وَلا تَقْتَصِرُ هذِهِ الآدابُ عَلى مَوْقِفٍ ما، وَلكِنَّها تَشْمَلُ جَميعَ المَواقِفِ، وَالأَماكِنِ، في المَنْزِلِ، أَوْ الطَّريقِ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ.

وَلا بُدَّ أَنْ يَلْتَزِمَ الإِنْسانُ بِاحْتِرامِ آدابِ الطَّريقِ؛ لِأَنَّ الطَّريقَ لَيْسَ مِلْكاً لِشَخْصٍ بِعَينِهِ، وَإِنَّما هُوَ مِلْكٌ لِلْجَميعِ، وَمِنْ أَهَمِّ آدابِ الطَّريقِ أَنْ يَكونَ الإِنْسانُ مُتَواضِعاً غَيْرَ مُتَكَبِّرٍ، وَلا مُتَبَخْتِرٍ في مِشْيَتِهِ؛ لِأَنَّ التَكَبُّرَ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي لا يُحِبُّها اللهُ، وَلا يُرْتاحُ لَها النّاسُ، وَمَهْما عَلا مَرْكَزُ الإِنْسانِ، وَارْتَفَعَتْ مَكانَتُهُ، فَإِنَّهُ ضَعيفٌ في هذا الكَوْنِ الفَسيحِ، وَإِذا رَأى أَحَدُنا في أَثْناءِ سَيْرِهِ عاجِزاً، أَوْ شَيْخاً، أَوْ أَعْمى، أَوْ مُحْتاجاً إِلى مُساعَدَةٍ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ العَوْنَ، وَأَنْ يَقومَ بِدَفْعِ الأَذى، وَإِزالَتِهِ

عَنِ الطَّريقِ إذا رآهُ، قالَ رَسولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "... وَتُميطُ الأذى عَنِ الطَّريقِ صَدَقَةٌ". (مُتَفَقٌ عَلَيْهِ). وَمِنَ الآدابِ الأُخْرى: الإِصْلاحُ بَيْنَ النّاسِ، وَمَنْعُ وُقُوعِ الشَّرِ قَدْرَ المُسْتَطاعِ، وَالالْتِزامُ بإشاراتِ المُرورِ، وَقوانينِ السَّيْرِ، وَعَدَمِ مُخالَفَتِها؛ حَتّى لا تَتَعَرَّضَ حَياةُ النّاسِ، وَباقي المَخْلوقاتِ لِلخَطَرِ.

وَقَدْ نَهانا الرَّسولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الجُلوسِ في الطُّرُقاتِ؛ لِأَنَّ فيها أَذِيَّةً لِلْمارَّةِ، وَتَضْييقاً لِلطَّريقِ عَلى المُسافِرينَ، وَفي نَهْيِهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الجُلوسِ في الطُّرُقاتِ مَنْعٌ لِكَثيرٍ مِنَ المَفاسِدِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ ظاهِرَةُ اسْتِخْدامِ المُفَرْقَعاتِ، وَإِغْلاقِ الشَّوارِعِ في مُناسَباتِ عَديدَةٍ ظاهِرَةً غَريبَةً، وَمُسْتَهْجَنَةً في مُجْتَمَعاتِنا، تَتَنافى مَعَ الآدابِ العامَّةِ لِحُرْمَةِ الشَّارِعِ؛ حَيْثُ يَقومُ بَعْضُ النّاسِ بِإِغْلاقِ الشّارِعِ، وَالسَّيرِ بِبُطْءٍ بِسَياراتِهِمْ بِطَريقَةٍ تَتَنافى وَقَواعِدَ السَّيْرِ، وَالذَّوْقَ العامَّ. وَإِنَّ انْتِشارَ ظاهِرَةِ اسْتِخْدامِ الألْعابِ النّارِيَّةِ يُثيرُ الرُّعْبَ، وَالفَوْضى في الشَّوارِعِ، وَالأَسْواقِ، وَبِخاصَّةٍ في الأَماكِنِ المُزْدَحِمَةِ، وَيُؤَدّي إلى تَرْهيبِ الأَطْفالِ، فَتُسَبِّبُ الألْعابُ النّارِيَّةُ لَهُمُ الهَلَعَ، وَالخَوْفَ، وَتَتْرُكُ فيهِمْ آثاراً نَفْسِيَّةً وَجِسْمِيَّةً سَيِّئَةً.

إِنَّ الالْتِزامَ بِالآدابِ الَّتي أَمَرَنا بِها الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُؤَدّي إلى الأَمْنِ وَالطُّمَأْنينَةِ؛ ما يُساعِدُ عَلى راحَةِ الإِنْسانِ، وَاسْتِقْرارِ المُجْتَمَعِ، وَيُصْبِحُ لَدَيْنا جيلٌ يَعْرِفُ ما لَهُ مِنْ حُقوقٍ، وَما عَلَيْهِ مِنْ واجِباتٍ. فَالبِلادُ الَّتي يَلْتَزِمُ أَهْلُها الآدابَ تَتَحَقَّقُ فيها النَّهْضَةُ، وَالتَّقَدُّمُ، وَتُصْبِحُ في مُقَدِّمَةِ الأُمَمِ.

(صَيْدُ الفَوائِدِ: د. بَدْر عَبْد الحَميدِ هَميسَة، بِتَصَرُّفٍ).

الدَّرْسُ الرّابِعُ

مِنْ مُذَكِّراتِ أَسيرٍ

مَرَّتْ سِتَّةُ أَعْوامٍ حَتّى الآنَ.. أَعُدُّها يَوْماً بِيَوْمٍ، وَأُحاوِلُ انْتِزاعَ أَيّامٍ إضافِيَّةٍ عَلَّها تُخَفِّفُ ثِقَلَ صَخْرَةِ الْحُكْمِ فَوْقَ صَدْري، وَالَّتي سَتَسْرِقُ مِنْ عُمُري اثْنَيْنِ وَعِشْرينَ عاماً.

هُناكَ في عَتَمَةِ سِجْنِ (شَطَّةَ)، كُنّا نُلاحِقُ الآمالَ بِالتَّحَرُّرِ، ونَسْرُدُ قِصَصاً لِبَعْضِنا عَنْ جِبالِ الخَليلِ، وَمُرْتَفَعاتِ رامَ الله، وَبَحْرِ أَريحا، وَعَراقَةِ نابُلْسَ، ثُمَّ يَأْخُذُنا الحَنينُ اللّامَحْدودُ إلى أَسْوارِ عَكّا، وَمآذِنِ القُدْسِ، وَشَواطِئِ حَيْفا وغَزَّةَ.. كُنّا نَبْحَثُ عَنْ أَيِّ فَراغٍ لِلْحُرِّيَّةِ في الكَلِماتِ، وَالأَوْراقِ، وَحَتّى الأَصْفادِ.

في يَوْمٍ مُشَوَّهٍ بِصَرَخاتِ السَّجّانِ، كُنْتُ أَسيرُ في الزِّنْزانَةِ الضَّيِّقَةِ ذَهاباً وَإِياباً، أَكادُ أَحْفِرُ أَرضِيَّتَها بِخُطُواتي، أَرْحَلُ إلى عالَمِ الأَحْلامِ المَشْحونَةِ -طَبْعاً- بِالْحُرِّيَّةِ، فَباتَتِ الفِكْرَةُ مُتَبَنّاةً لَدَيَّ، وَلَدى مَجْموعَةٍ مِنْ إِخْوانِيَ الأَسْرى.. قَرَّرْنا -إِذَنْ- أَنْ نَشُقَّ الأَرْضَ بَحْثاً عَنِ الْحُرِّيَّةِ!

وَبَعْدَ اجْتِماعاتٍ سِرِّيَّةٍ مُتَتالِيَةٍ، عَزَمْنا عَلى بَدْءِ حَفْرِ نَفَقٍ في أَرْضِيَّةِ السِّجْنِ، فَبَدَأْنا نَنْتَزِعُ (بَلاطَ) الْغُرْفَةِ بِبَقايا مُعَلَّباتِ الطَّعامِ، وَنَجَحْنا في إِزالَةِ اثْنَتَيْنِ خِلالَ أَيّامٍ، ثُمَّ شَرَعْنا بِحَفْرِ الإِسْمَنْتِ الصُّلْبِ، مُتَسَلِّحينَ بِالطُّموحِ.

كَمْ لَفَّقْنا الأَكاذيبَ السَّمْعِيَّةَ عَلى السَّجّانِ؛ كَيْ نُواصِلَ عَمَلَنا دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِنا!، فَاتَّفَقْنا مَعَ أَسْرى آخَرينَ خِلالَ ساعَةِ (الفَوْرَةِ) التَّشْجيعَ بِصَوْتٍ عالٍ؛ كَيْ يُغَطّوا عَلى صَوْتِ أَعْمالِ الْحَفْرِ الجَريئَةِ.. وَبَعْدَ أَيّامٍ طَويلَةٍ مِنْ عَناءِ اخْتِراقِ الإِسْمَنْتِ، تَفاجَأْنا بِطَبَقَةٍ أُخْرى مُماثِلَةٍ، عَزَمْنا عَلى أَلّا تُذَوِّبَ عَزائِمَنا، فَكانَ لَنا ذلِكَ، حَتّى وَصَلْنا أَخيراً إلى طَبَقَةِ التُّرابِ.

كانَ التَّحَدّي أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ كَمِّيّاتِ التُّرابِ الَّتي نَسْتَخْرِجُها، فَاتَّفَقْنا عَلى تَذْويبِهِ في دَوْرَةِ المِياهِ المَهْجورَةِ المُجاوِرَةِ لِغُرْفَتِنا.. وَبَعْدَ حَفْرِ ما يُقارِبُ سَبْعَةَ أَمْتارٍ عَرْضِيّاً، أَنْشَأْنا جِسْراً مِنَ الخَشَبِ؛ كَيْ لا يَتَساقَطَ التُّرابُ فَوْقَنا.

قَدْ يَبْدو ضَرْباً مِنَ الخَيالِ أَنْ نَتَحَلّى بِتِلْكَ الجُرْأَةِ، وَنَحْنُ أَسْرى القَيْدِ، وَلكِنَّنا أَسْرى الْحُرِّيَّةِ كَذلِك، فَلا شَيْءَ لَدَيْنا يُساوي دَقيقَةً خارِجَ أَسْوارِ السِّجْنِ، فَحُلْمُ الْحُرِّيَّةِ الَّذي راوَدَنا طَويلاً لَمْ يَكُنْ بِمَعْزِلٍ عَنْ جِراحٍ يُخَلِّفُها في نُفوسِنا، كُلَّما غادَرْنا بِخَيالِنا عَتَمَةَ الزَّنازينِ إِلى أَنْوارِ الوَطَنِ السَّليبِ.

(مُذَكِّراتُ أَسيرٍ، بِتَصَرُّفٍ)

الدَّرْسُ الخامِسُ

مِنْ نَوادِرِ العَرَبِ

"تَزَوَّجَ نُصَيْبُ الشّاعِرُ عَلى زَوْجَتِهِ أُمِّ مَحْجَنَ، ثُمَّ أَرادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ زَوْجَتَيْهِ؛ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُما، فَقالَ لِأُمِّ مَحْجَنَ: إِنّي أَكْرَهُ أَنْ تَرى بِكِ زَوْجَتِيَ الجَديدَةُ خَصاصَةً، فَخُذي هذا الدّينارَ، وَاعْمَلي لَها غَداءً بِهِ. وَأَتى إِلى زَوْجَتِهِ الجَديدَةِ، وَقالَ لَها: سَأَجْمَعُكِ بِأُمِّ مَحْجَنَ، وَهِيَ سَتُكْرِمُكِ، وَأَكْرَهُ أَنْ تَدْخُلي عَلَيْها خالِيَةً، فَتَظُنُّ أَنَّكِ فَقيرَةٌ مُحْتاجَةٌ، فَخُذي هذا الدّينارَ، وَأَهْدي إِلَيْها شَيْئاً بِهِ، وَأَمَرَ كُلّاً مِنْهُما أَنْ تَكْتِمَ خَبَرَ دينارِها. ثُمَّ قالَ لِصاحِبٍ لَهُ: غَداً سَأَجْمَعُ زَوْجَتَيَّ، فَتَعالَ إِلَيَّ مُسَلِّماً، فَإِنّي سَأَسْتَبْقيكَ لِلْغَداءِ، فَإِذا تَغَدَّيْتَ فَسَلْني عَنْ أَحَبِّهِما إِلَيَّ. فَلَمّا كانَ الغَدُ، زارَتْ زَوْجَتُهُ الجَديدَةُ أُمَّ مَحْجَنَ، وَحَضَرَ صَديقُهُ، فَلَمّا تَغَدَّوا، قالَ صَديقُهُ: أُحِبُّ أَنْ تُخْبِرَني مَنْ أَحَبُّ زَوْجَتَيْكَ إِلَيْكَ، فَقالَ لَهُ: سُبْحانَ اللهِ، أَفَتَسْأَلُني عَنْ هذا، وَهُما تَسْمَعانِ؟ قالَ: فَإِنّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ لَتُخْبِرَنّي، فَقالَ نُصَيْبٌ: أَحَبُّهُما إِلَيَّ صاحِبَةُ الدّينارِ. وَاللهِ لا أَزيدُكَ عَلى هذا شَيْئاً، فَامْتَلَأَتْ نَفْسُ كُلِّ واحِدَةٍ سُروراً، وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَصَدَها وَحْدَها".

(ابْتَسِمْ: عائِضُ القَرَنيّ، بِتَصَرُّفٍ)

الدَّرْسُ السّادِسُ

إِصْرارٌ وَتَحَدٍّ

مَعَ صَبيحَةِ كُلِّ يَوْمٍ يَخْرُجُ إِلى عَمَلِهِ في المَدْرَسَةِ المُجاوِرَةِ، يَسيرُ وَكَأَنَّهُ يَهيمُ في عالَمٍ مِنَ الخَيالِ، وَاللّاشُعورِ، يُقَلِّبُ في ذِهْنِهِ أَخْبارَ الأَمْسِ: شُهَداءَ... مُصابينَ... اعْتِقالاتٍ... هَدْمَ بُيوتٍ... اقْتِلاعَ أَشْجارٍ.

وَتُحَدِّثُهُ مُعاناتُهُ حَوْلَ صُعوبَةِ الطَّريقِ الموصِلَةِ إِلى المَدْرَسَةِ الَّتي يَذْهَبُ فيها مَشْياً عَلى الأَقْدامِ، بَعْدَ أَنْ قامَ الصَّهاينَةُ بِإِغْلاقِ الطَّريقِ الرَّئيسَةِ إِلى القَرْيَةِ الَّتي فيها مَدْرَسَتُهُ، وَيُظْهِرُ ضَجَراً، وَعَدَمَ رَغْبَةٍ في مُحادَثَةِ المارّينَ، كَأَنَّهُمْ ظِلٌّ لِجَسَدِهِ النَّحيلِ.

واصَلَ المَسيرَ عَبْرَ الشّارِعِ، مارّاً مِنْ أَمامِ مُعَسْكَرِ الجَيْشِ...، يَقْتَرِبُ، وَيَفْتَحُ المِعْطَفَ، وَيُخْرِجُ البِطاقَةَ الشَّخْصِيَّةَ مِنْ جَيْبِهِ، مُحَدِّثاً نَفْسَهُ: "أَنْ تَسيرَ خُطْوَةً في هذِهِ الطَّريقِ يَعْني أَنْ تُصْبِحَ هَدَفاً لِلجُنودِ الَّذينَ يَهْدِرونَ الوَقْتَ، وَيَسْخَرونَ مِنَ المارّةِ، وَيَتَلَذَّذونَ عَلى مُعاناتِهِمْ... رُبَّما تَكونُ لُعْبَتُهُمْ هذِهِ المَرَّةَ مُعَلِّماً قادَهُ القَدَرُ لِيَكونَ هَدَفَهُمْ، يَقْتَرِبُ، فَيَرى جُنْدِيّاً يُصَوِّبُ بُنْدُقِيَّتَهُ مِنْ بُرْجِ المُراقَبَةِ، وَهُناكَ جُنْدِيٌّ آخَرُ يَقِفُ وَسَطَ الشّارِعِ، فَيَطْلُبُ مِنْهُ الجُنْدِيُّ التَّوَقُّفَ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَدورَ حَوْلَ نَفْسِهِ، رافِعاً مِعْطَفَهُ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ بِالتَّقَدُّمِ، رافِعاً يَدَيْهِ في وَضْعِ الاسْتِسْلامِ، يَسْأَلُهُ الجُنْدِيُّ بِعَرَبِيَّةٍ رَكيكَةٍ...

وَفي هذِهِ اللَّحْظَةِ، يَخْرُجُ مِنَ المُعَسْكَرِ جُنْدِيّانِ آخَرانِ، أَحَدُهُما ضابِطٌ. يُدَقِّقُ المُعَلِّمُ النَّظَرَ فيهِ، فَيَرى في عَيْنَيْهِ حِقْداً دَفيناً، اقْتَرَبَ إِلَيْهِ الآخَرُ مُصَوِّباً بُنْدُقِيَّتَهُ نَحْوَ رَأْسِهِ، فيما قامَ الضّابِطُ بِتَفْتيشِهِ، أَخْرَجَ كُلَّ ما في حَوْزَتِهِ مِنْ أَوْراقٍ وَنُقودٍ، ثُمَّ بَدَأَ الضّابِطُ بِتَقْليبِ الأَوْراقِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَوَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الضّابِطِ بَرْنامَجُ الحِصَصِ الدِّراسِيَّةِ مَرْسوماً عَلَيْهِ خَريطَةُ فِلَسْطينَ

مُوَشَّحَةً بِالعَلَمِ، فَثارَ غَضَبُهُ، وَاقْتَرَبَ مِنَ المُعَلِّمِ خُطْوَةً، وَحاوَلَ صَفْعَهُ، فَما كانَ مِنَ المُعَلِّمِ إلّا أَنْ أَمْسَكَ يَدَهُ، وَأَنْزَلَها بِقُوَّةٍ...

بَكَتِ السَّماءُ أَمْطاراً غَزيرَةً، فَدَفَعَتِ الجُنودَ إلى الدُّخولِ إلى خَيْمَةِ المُعَسْكَرِ، وَبَقِيَ المُعَلِّمُ جالِساً، يَضَعُ يَدَيْهِ خَلْفَ رَأْسِهِ... مَضَتْ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ عَلى هذِهِ الحالِ، وَالأَمْطارُ تَزْدادُ حِدَّتُها، كَأَنَّها تَحْفِرُ في رَأْسِهِ ثُقوباً... يَنْهَضُ بِغَضَبٍ نَحْوَ البَوّابَةِ...، يَصِلُها، وَيَهُزُّها بِعُنْفٍ...، فَيَجِدُها مُغْلَقَةً...، يَعودُ إلى الوَراءِ، حَيْثُ طَريقُ المَدْرَسَةِ، يَطْلُبُ مِنْهُ الجُنْدِيُّ التَّوَقُّفَ...، لَمْ يَمْتَثِلْ لِأَمْرِهِ...، فَيَصْرُخُ الجُنْدِيُّ:

- تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!

يُصَوِّبُ بُنْدُقِيَّتَهُ تُجاهَهُ...، وَتَنْطَلِقُ رَصاصَةٌ، فَتُصيبُهُ، فَيَسْقُطُ مُعانِقاً الأَرْضَ الَّتي أَحَبَّ.

(تَحْتَ الحِصارِ: رائد حامد السلوادي، بِتَصَرُّفٍ)

الدَّرْسُ السّابِعُ

عاقِبَةُ الظُّلْمِ

زَعَموا أَنَّ رَجُلاً كانَ يَسيرُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ، فَرَأى صَيّاداً فَقيراً قَدِ اصْطادَ سَمَكَةً كَبيرَةً، وَعِنْدَما أَخْرَجَها مِنَ البَحْرِ، نَظَرَ الرَّجُلُ إلى السَّمَكَةِ، فَأَعْجَبَتْهُ، وَطَمِعَ فيها، فَذَهَبَ إلى الصَّيّادِ، وَقالَ لَهُ بِأُسْلوبٍ حادٍّ: أَعْطِني السَّمَكَةَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الصَّيّادُ قائِلاً: إِنَّ هذا قوتُ أَبْنائي، فَقامَ الرَّجُلُ بِضَرْبِهِ، وَأَخَذَها مِنْهُ عُنْوَةً، وَقَبْلَ أَنْ تَموتَ، عَضَّتْ إِبْهامَهُ عَضَّةً قَوِيَّةً، وَسَبَّبَتْ لَهُ أَلَماً. وَعِنْدَما وَصَلَ البَيْتَ، أَخَذَ الأَلَمُ يَزْدادُ، وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي، ذَهَبَ إلى الطَّبيبِ يَشْكو إِلَيْهِ، فَقالَ لَهُ الطَّبيبُ: يَجِبُ أَنْ يُقْطَعَ إِبْهامُكَ فَوْراً، وَإذا انْتَظَرْتَ زَمَناً أَكْثَرَ، سَتُقْطَعُ ذِراعُكَ كامِلَةً!

رَجَعَ الرَّجُلُ إلى مَنْزِلِهِ مُحْتاراً في أَمْرِهِ، لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ، وَبِمُرورِ السّاعاتِ، انْتَشَرَ الأَلَمُ في كَفِّ يَدِهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَسْتَغيثُ بِالطَّبيبِ، فَنَصَحَهُ بِقَطْعِ كَفِّ يَدِهِ إلى الرُّسْغِ، فَوافَقَ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ، عَلى قَطْعِ كَفِّ يَدِهِ. وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الأَلَمُ، بَلِ ازْدادَ، فَقَطَعَ الطَّبيبُ يَدَهُ إلى المِرْفَقِ، ثُمَّ تَضاعَفَ الأَلَمُ، وَوَصَلَ إلى العَضُدِ، وَأَصْبَحَ أَكْثَرَ، وَأَشَدَّ مِمّا مَضى، قالَ لَهُ الطَّبيبُ: عَلَيْكَ أَنْ تَقْطَعَ ذِراعَكَ مِنْ كَتِفِكَ؛ حَتّى لا يَنْتَشِرَ المَرَضُ في جَسَدِكَ كُلِّهِ، فَوافَقَ الرَّجُلُ عَلى قَطْعِ ذِراعِهِ كُلِّها. وَحينَ رَآهُ النّاسُ، سَأَلوهُ عَنْ سَبَبِ قَطْعِ يَدِهِ، أَجابَ: إِنَّهُ الصَّيّادُ صاحِبُ السَّمَكَةِ !وَحَدَّثَهُمْ بِكُلِّ ما جَرى مَعَهُ.

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، الْتَقى الرَّجُلُ أَحَدَ الشُّيوخِ المُجَرِّبينَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ: لَوْ كُنْتَ ذَهَبْتَ مِنَ البِدايَةِ إلى الصَّيّادِ، وَاسْتَحْلَلْتَ مِنْهُ، وَأَرْضَيْتَهُ، لَما قُطِعَتْ ذِراعُكَ! ثُمَّ نَصَحَهُ بِالذَّهابِ إلى الصَّيّادِ، وَطَلَبِ رِضاهُ، وَمُسامَحَتِهِ، وَعَفْوِهِ؛ حَتّى لا يَنْتَشِرَ الأَلَمُ في باقي جَسَدِهِ؛ فَيَكونَ مَصيرُهُ المَوْتَ.

خَرَجَ الرَّجُلُ يَبْحَثُ عَنِ الصَّيّادِ في البِلادِ حَتّى وَجَدَهُ، فَارْتَمى عِنْدَ قَدَمَيْهِ يُقَبِّلُهُما، وَيَبْكي بُكاءً شَديداً، وَيَسْتَحْلِفُهُ باللهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ، وَيُسامِحَهُ، فَتَعَجَّبَ مِنْ فِعْلِهِ، وَسَأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَجابَهُ الرَّجُلُ: أَنا الرَّجُلُ الَّذي أَخَذْتُ مِنْكَ السَّمَكَةَ ظُلْماً، وَذَكَرَ لَهُ قِصَّتَهُ كامِلَةً، وَلَمّا رَأى الصَّيّادُ ما وَصَلَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الظّالِمُ مِنَ البَلاءِ، قالَ لَهُ: لَقَدْ سامَحْتُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبي، فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ: ماذا فَعَلْتَ يَوْمَ أَخَذْتُ السَّمَكَةَ مِنْكَ بِالقُوَّةِ؟ فَأَجابَ الصَّيّادُ: لَقَدْ دَعَوْتُ عَلَيْكَ وَقْتَها، وَقُلْتُ: "اللّهُمَّ، إِنَّ هذا تَقَوّى بِقُوَّتِهِ عَلى ضَعْفي، وَسَلَبَني ما رَزَقْتَني ظُلْماً، فَأَرِني فيهِ قُدْرَتَكَ"!

(الكَبائِرُ: الإمامُ الذَّهَبِيُّ، بِتَصَرُّفٍ)

الدَّرْسُ الثّامِنُ

الحَياةُ في البادِيَةِ

(المُؤَلِّفونَ)

في البادِيَةِ، وَمَعَ ساعاتِ الصَّباحِ الباكِرِ، تَسَلَّلَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ بَيْنَ كُثْبانِ الرِّمالِ الذَّهَبِيَّةِ، فَازْدادَتْ لَمَعاناً وَتَأَلُّقاً، وَكَأَنَّها أَكْوامٌ مِنَ الذَّهَبِ المُتَلَأْلِئِ، يَلُفُّها الهُدوءُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، بَعيداً عَنْ صَخَبِ المُدُنِ، حَيْثُ يَلْجَأُ إِلَيْها كَثيرٌ مِنَ الباحِثينَ وَالمُهْتَمّينَ؛ لِغَرَضِ الدِّراسَةِ، أَوِ الاسْتِمْتاعِ بِالطَّبيعَةِ، فَهِيَ مَليئَةٌ بِأَلْوانِ الحَياةِ المُتَعَدِّدَةِ، وَلِلحَياةِ فيها سِحْرٌ خاصٌّ، حَيْثُ الطَّبيعَةُ الخَلّابَةُ، وَالمَناظِرُ السّاحِرَةُ الَّتي تَسْحَرُ النَّفْسَ بِجَمالِها، فَيَتَحَرَّكُ الإِبْداعُ.

وَتَبْدو مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الكُثْبانِ الرَّمْلِيَّةِ التَّجَمُّعاتُ البَدَوِيَّةُ الَّتي تَسودُ فيها بَساطَةُ الحَياةِ، وَصَفاءُ النُّفوسِ، وَكَرَمُ الضِّيافَةِ، وَيَجْمَعُها نِظامٌ قَبَلِيٌّ، يَرْأَسُهُ شَيْخٌ يَتَّسِمُ بِالحِكْمَةِ، وَرَجاحَةِ العَقْلِ، وَقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَفَصاحَةِ اللِّسانِ. فَهُوَ النّاطِقُ بِاسْمِ القَبيلَةِ، وَمُمَثِّلُها أَمامَ القَبائِلِ في حَلِّ النِّزاعاتِ، وَغَيْرِها، وَلِكُلِّ قَبيلَةٍ مَجْموعَةٌ مِنَ الفُرْسانِ، تُدافِعُ عَنْها، وَتَحْميها، وَشاعِرٌ يَصْدَحُ بِأَمْجادِها.

وَيَقومُ اقْتِصادُ القَبيلَةِ عَلى تَرْبِيَةِ الماشِيَةِ مِنْ أَغْنامٍ وَإِبِلٍ، وَيَعْمَلُ أَغْلَبُ أَفْرادِها في الرَّعْيِ، وَصَيْدِ الحَيَواناتِ، وَالطُّيورِ البَرِّيَّةِ، وَيَتَنَقَّلونَ مِنْ مَكانٍ إِلى آخَرَ سَعْياً وَراءَ الكَلَأِ وَالماءِ اللَّذَيْنِ يُعَدّانِ مِنْ أَبْرَزِ أَسْبابِ النِّزاعاتِ بَيْنَ القَبائِلِ.

وَيَشْتَهِرُ البَدَوِيُّ بِالفَصاحَةِ، وَالفِراسَةِ، وَالكَرَمِ، وَالنَّخْوَةِ، وَالوَفاءِ، وَالشَّجاعَةِ، وَإِغاثَةِ المَلْهوفِ، وَقَصِّ الأَثَرِ، أَمّا المَرْأَةُ البَدَوِيَّةُ فَهِيَ صِنْوُ الرَّجُلِ، وَلَها دَوْرٌ عَظيمٌ؛ فَهِيَ صانِعَةُ الرِّجالِ، وَمُحَرِّضَةُ الفُرْسانِ، وَقائِمَةٌ عَلى شُؤونِ بَيْتِها، تَمْتازُ بِالعِفَّةِ وَالحِشْمَةِ، وَكَثيراً ما تَقومُ مَقامَ زَوْجِها في إِكْرامِ الضَّيْفِ.

الدَّرْسُ التّاسِعُ

عَمالَةُ الأَطْفالِ.. بَراءَةٌ أَضاعَها الفَقْرُ أَمِ الطَّمَعُ؟!

(رَزانُ المَجالي، بِتَصَرُّفٍ)

تَخْتَلِفُ القِصَصُ في الحَياةِ، وَتَخْتَلِفُ مَعَها أَسْبابُ عَمالَةِ الأَطْفالِ، لَكِنَّ المُعاناةَ تَبْقى واحِدَةً، فَهذا الطِّفْلُ (عَلِيٌّ) الَّذي يَعْمَلُ في مَحَلِّ تَصْليحِ السَّيّاراتِ، يَسْتَذْكِرُ أَيّامَ المَدْرَسَةِ بِحُزْنٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَفَوِّقاً فيها، وَلَمْ يُحِبَّها آنَذاكَ، إِلّا أَنَّ ظُروفَ عائِلَتِهِ أَجْبَرَتْهُ عَلى الخُروجِ، وَالعَمَلِ في هذا المَكانِ، كَما أَنَّ إِغْراءاتِ المُحيطينَ بِهِ بِأَنَّ هذِهِ المِهْنَةَ تُدِرُّ دَخْلاً كَبيراً، هُوَ ما دَفَعَهُ لِتَرْكِ المَدْرَسَةِ، وَالعَمَلِ هُناكَ، حَيْثُ إِنَّهُ يَشْعُرُ بِسَعادَةٍ كَبيرَةٍ عِنْدَما يَشْتَري ما يَتَمَنّاهُ مِنَ احْتِياجاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَما تَحتاجُهُ عائِلَتُه، فَتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ كَمُعيلٍ لَها.

كَثيرونَ مَنْ هُمْ عَلى شاكِلَةِ عَلِيٍّ، نَراهُمْ يَنْدَفِعونَ حُفاةً بَيْنَ السَّيّاراتِ وَعَجَلاتِها، فَهُمْ مُجْبَرونَ عَلى العَمَلِ في سَبيلِ لُقْمَةِ العَيْشِ، ناهيكَ عَنِ العَمَلِ الشّاقِّ الَّذي يُمارِسونَهُ، فَفَكُّ الإِطاراتِ وَتَرْكيبُها يُعَدُّ أَمْراً صَعْباً عَلى الكِبارِ، فَما بالُ هؤُلاءِ الصِّغارِ بِأَجْسادِهِمُ الغَضَّةِ النَّحيلَةِ؟!

وَما إِنْ يَحِلُّ المَساءُ حَتّى يَعودوا إِلى مَنازِلِهِمْ مُنْهَكي القُوى، بادِيَةً عَلَيْهِمْ آثارُ التَّعَبِ وَالإِعْياءِ، كُلُّ ذَنْبِهِمْ أَنَّهُمْ خُلِقوا فُقَراءَ، اسْتَغْنَوا عَنْ

أَدَواتِهِمُ المَدْرَسِيَّةِ بِأَدَواتِ (البَشَرِ) الَّتي قَدْ تَكونُ خَطِرَةً عَلَيْهِمْ.

وَلِعَمالَةِ الأَطْفالِ آثارٌ سَلْبِيَّةٌ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ تَمُرَّ هذِهِ الظّاهِرَةُ عَلى الطِّفْلِ دونَ أَنْ تَتْرُكَ أَيَّ آثارٍ عَلَيْهِ، وَمِنْ أَهَمِّها الآثارُ الاجْتِماعِيَّةُ، وَالأَخْلاقِيَّةُ المُتَمَثِّلَةُ بِفُقْدانِ فُرَصِ التَّعْليمِ، وَالتَّسَرُّبِ مِنَ المَدْرَسَةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْعُنْفِ بِأَشْكالِهِ كافَّةً، وَاكْتِسابِ العاداتِ السَّيِّئَةِ، مِثْلِ التَّدْخينِ، وَغَيْرِهِ، وَالَّتي قَدْ تَصِلُ إِلى حَدِّ الانْحِرافِ، وَالانْخِراطِ في المُخَدِّراتِ، وَالجَريمَةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلاسْتِغلالِ، كَما تَظْهَرُ عَلى الأَطْفالِ آثارٌ صِحِّيَّةٌ وَجَسَدِيَّةٌ سَيِّئَةٌ، فَنَظَراً لِصِغَرِ الجِهازِ المَناعِيِّ عِنْدَ الأَطْفالِ، فَإِنَّ تَأَثُّرَهُمْ بِالأَحْوالِ البيئِيَّةِ أَكْثَرُ مِنَ الكِبارِ، فَيُعَرِّضُهُمْ ذلِكَ لِلْمَخاطِرِ الصِّحِّيَّةِ، وَيُؤَثِّرُ عَلى نُمُوِّهِمْ، وَتَظْهَرُ لَدَيْهِمُ الأَمْراضُ المُسْتَعْصِيَةُ الَّتي يَصْعُبُ عِلاجُها.

وَالأَهَمُّ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ الآثارُ النَّفْسِيَّةُ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ يُؤَثِّرُ عَمَلُ الطِّفْلِ عَلى التَّطَوُّرِ العاطِفِيِّ وَالمَعْرِفِيِّ وَالسُّلوكِيِّ لَدَيْهِ؛ فَيَفْقِدُ احْتِرامَهُ لِذاتِهِ، وَيَشْعُرُ بِالدّونِيَّةِ، وَالاخْتِلافِ عَنِ الآخَرينَ، وَيُصابُ بِالتَّوَتُّرِ وَالقَلَقِ، وَاضْطِرابِ السُّلوكِ، وَكَثيرٍ مِنَ الأَمْراضِ النَّفْسِيَّةِ.

وَأَخيراً، تَبْقى هذِهِ الظّاهِرَةُ مَوْجودَةً وَمُتَفاقِمَةً في المُجْتَمَعِ، وَلكِنْ مَنْ يُعيثُ هؤُلاءِ الأَبْرِياءِ مِنْ بَراثِنِ الطَّمَعِ، وَالفَقْرِ، فَوُجودُهُمْ في الشّارِعِ هُوَ مِنْ أَسْوَأِ ما يُمْكِنُ أَنْ يُصيبَ الطُّفولَةَ، بَلِ المُجْتَمَعَ بِأَكْمَلِهِ.

الدَّرْسُ العاشِرُ

مَعْرَكَةُ عَيْنِ جالوتَ

لَقَدْ شاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ مَعْرَكَةَ تَحْريرِ المُسْلِمينَ مِنْ خَطَرِ التَّتارِ تَقَعُ عَلى أَرْضِ فِلَسْطينَ، الَّتي سَبَقَ أَنْ خَلَّدَ عَلى تُرابِها صَلاحُ الدّينِ انْتِصاراتِهِ الرّائِعَةَ عَلى الصَّليبِيّينَ، وَذلِكَ أَنَّ قُطُزَ سُلْطانَ مِصْرَ اسْتَمَرَّ عَلى خُطَّتِهِ الَّتي تَسْتَهْدِفُ المُبادَرَةَ بِالهُجومِ عَلى التَّتارِ الَّذينَ عاثوا في أَرْضِ الشّامِ خَراباً وَتَدْميراً، فَأَمَرَ قائِدَهُ الباسِلَ الظّاهِرَ بيبَرْسَ أَنْ يُتابِعَ إِغاراتِهِ الجَريئَةَ عَلى قُوّاتِ التَّتارِ المُبَعْثَرَةِ في سائِرِ أَنْحاءِ البِلادِ، وَصارَ عَلى عِلْمٍ تامٍّ بِكُلِّ تَحَرُّكاتِهِمْ، وَبَعَثَ بِتَقاريرِهِ إِلى قُطُزَ الَّذي تابَعَ السَّيْرَ حَتّى انْضَمَّ إِلَيْهِ عِنْدَ عَيْنِ جالوتَ بَيْنَ بيسانَ وَنابُلُسَ بِفِلَسْطينَ.

وَفي يَوْمِ الجُمُعَةِ، الخامِسِ مِنْ رَمَضانَ سَنَةَ سِتِّمِئَةٍ وَثَمانٍ وَخَمْسينَ لِلهِجْرَةِ، الْتَقَتْ مُقَدِّمَةُ قُوّاتِ المُسْلِمينَ بِطَلائِعِ التَّتارِ، وَأَنْزَلَتْ بِها هَزيمَةً فادِحَةً، وَقَدْ أَظْهَرَ السُّلطانُ قُطُزُ مَهارَةً وَشَجاعَةً نادِرَةً في القِتالِ، فَاشْتَرَكَ بِنَفْسِهِ في المَعْرَكَةِ؛ ما رَفَعَ الرّوحَ المَعْنَوِيَّةَ لِلجُنْدِ.

وَلَمّا اشْتَدَّ القِتالُ، أَلْقى قُطُزُ خَوْذَتَهُ عَلى الأَرْضِ، وَصاحَ بِأَعْلى صَوْتِهِ: "واإِسْلاماهُ"! وَحَمَلَ بِنَفْسِهِ عَلى التَّتارِ، فَازْدادَ نَشاطُ جُنْدِ المُسْلِمينَ، وَهَجَموا عَلَيْهِمْ هُجومَ الأُسْدِ عَلى الفَريسَةِ، حَتّى إِنَّ قائِدَهُمُ الأَعْلى خَرَّ صَريعاً، وَقَضَوا عَلى مُعْظَمِ فُرسانِهِمْ، وَعِنْدَئِذٍ، نَزَلَ قُطُزُ عَنْ جَوادِهِ، وَمَرَّغَ وَجْهَهُ بِالأَرْضِ، وَقَبَّلَها، وَصَلّى رَكْعَتَيْنِ شُكْراً للهِ تَعالى.

وَمِمّا زادَ في أَهَمِّيَّةِ مَوْقِعَةِ عَيْنِ جالوتَ أَنَّها لَمْ تَكُنْ نَصْراً مادِّيّاً فَحَسْبُ، بَلْ إِنْقاذاً مِنْ عُقْدَةٍ نَفْسِيَّةٍ رَسَخَتْ في أَذْهانِ المُسْلِمينَ عَنْ وَحْشِيَّةِ التَّتارِ، وَزَحْفِهِمُ المُتَتابِعِ؛ إِذْ كانَتْ تِلْكَ المَعْرَكَةُ أَوَّلَ لَطْمَةٍ قاتِلَةٍ نَزَلَتْ في الشَّرْقِ بِجُيوشِ التَّتارِ، وَما كادَ المُسْلِمونَ يَبْرَؤونَ مِنْ هذا المَرَضِ النَّفْسِيِّ العُضالِ، حَتّى أَخَذوا يَسيرونَ قُدُماً في سَبيلِ الجِهادِ، حَتّى حَرَّروا دِيارَهُمْ كُلَّها مِنَ التَّتارِ، وَاسْتَعادوا مَكانَتَهُمْ بَيْنَ أُمَمِ العالَمِ أَجْمَعَ.